

## سورة الذاريات

هي مكية وعدة آياتها ستون ، نزلت بعد الأحقاف ، ومناسبتها لما قبلها :  
 (١) إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار ، وافتتح  
 هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .  
 (٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا ذكر  
 ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)  
 فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)  
 وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ (٧) إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ  
 أُفِكَ (٩) قُلِ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي نَعْمَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ  
 أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ  
 هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) .

## شرح المفردات

الذاريات : الرياح تذر التراب وغيره ، أى تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه  
 أوقار : أى أقال ، والحاملات وقرًا : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ،  
 واليسر : السهولة ، والجاريات يسرًا : هى الرياح الجارية فى مهاها بسهولة ، والمقسمات  
 أمرًا : هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث

والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أى حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أى متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينما تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون ، وتارة تقولون إنه ساحر ، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لاحشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاءونا عند الله يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أى يصرف عن القول المختلف : أى بسببه من صرف عن الإيمان ، والخراصون : أى الكذابين من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أى فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الفامر ، ساهون : أى غافلون عما أمروا به ، أيان يوم الدين : أى متى يوم الجزاء : أى متى حصوله ، يفتنون : أى يحرقون ، وأصل الفتن : إذابة الجوهر ليعرف غشه فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، ففتنكم : أى عذابكم الممد لكم .

### المعنى الجملى

هاهنا أمور يحمل بك أن تنفهما :

(١) بعد أن بين الحشر بدلائله وقال : ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ، ثم أصروا على ذلك غاية الإصرار لم يبق إلا اليمين فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا — إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » .

(٢) إن الإيمان التى حلف بها الله تعالى فى كتابه كلها دلائل على قدرته أخرجها فى صورة الإيمان ، كما يقول القائل للنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك ، فيذكر النعم وهى سبب لدوام الشكر ويسلك بها مسلك القسم ، وجاءت الآية هكذا ، مصدره بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاماً عظيماً يجب أن يرضى إليه ، فإذا وجهه همه لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين فى صورة اليمين .

(٣) في السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف المقطعة كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة : الوجدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الإيمان ، فأقسم لإثبات الوجدانية في سورة الصافات فقال : « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » وأقسم في سورتي النجم والضحى لإثبات الرسالة فقال في الأولى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ » وقال في الثانية « وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » وأقسم في سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء .

(٤) في السورة التي أقسم فيها لإثبات الوجدانية أقسم بالساكنات فقال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا » ، وفي السور التي أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا - وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا - وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا - وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وهو بالحركة أليق .

(٥) كانت العرب تحترز عن الإيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم على سننهم ، تخلف بكل شريف ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتا ، وكانوا يعلمون أنه لا يخلف إلا صادقا وإلا أصابه شؤم الإيمان ، وناله المكروه في بعض الأيام .

## الإيضاح

( والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالقسيمات أمرا . إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ) أقسم سبحانه بالرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها في الهواء يسر وسهولة ، وتقسيمها الأمطار ، إن هذا البعث لحاصل ، وإن هذا الجزاء لا بد منه في ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها ، لما يشاهدون من آثارها ونفعها العظيم لهم فهي التي ترسل الأمطار بمشيرات برحمته ، ومنها تسقى الأنعام والزرع وتنبت

البساتين والجنات وتجعل الأرض القَفْرَ مَرُوجاً ، وعليها يعتمدون في معاشهم ، فأثارها واضحة أمامهم ، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى في نفوسهم .

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها ، واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفاً عجيباً تابعاً لسير الكواكب ، فبحريها وجرى الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية منتظمة ، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة .

(والسما ذات الحيك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) أى والسما ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء ، إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول ، لاني قول مختلف مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على من هو ضالّ في نفسه ، لأنه قول باطل يُصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

والخلاصة — قسما بالسما وزينتها وجمالها ، إن أمركم في شأن محمد وكتابه لعجب عجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحيناً تقولون هو شاعر ، وحيناً آخر تقولون هو ساحر ، و مرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبيننا تقولون عن القرآن إنه سحر إذا بكم تقولون إنه شعر أو إنه كهانة .

(قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون) أى قتل الكذابين من أصحاب القول المختلف الذين هم في جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به في عرف التخاطب لعنهم ، إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول ، وقد جاء في القاموس : قتل الإنسان مأً كفره : أى لعن ، وقتلهم الله ، أى لعنهم .

(يسألون أيان يوم الدين) أى يسألك المشركون استهزاء فيقولون : متى يوم الجزاء ، وقد كان لهم من أنفسهم لو تدبروا ما يدفهم إلى الاعتقاد بمجىء هذا

اليوم ، فإن أحداً منهم لا يترك عبيده وأجراءه فى عمل دون أن يحاسبهم وينظر فى أحوالهم ، ويحكم بينهم فى أقوالهم وأفعالهم ، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبدة الذين أبدع لهم هذا الكون وهياً لهم كل ما يحتاجون إليه - سدى ويوجد لهم غيباً . ثم أجاب عن هذا السؤال وذكر أنه يكون يوم القيامة فقال :  
( يوم هم على النار يفتنون ) أى يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار وتقول لهم الخزنة :

( ذوقوا فنتنكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ) أى ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

### تفسير المفردات

فى جنات وعيون: أى فى بساطين تجرى من تحتها الأنهار، محسنين: أى مجودين لأعمالهم ، والهجوع: النوم ليلاً؛ والهجمة النوم الخفيفة، والأسحار: واحدها سحر وهو السدس الأخير من الليل، حق: أى نصيب وأمر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم وإشفاقاً على عباده، والسائل: هو المستجدى الطالب العطاء، والمحروم: هو المتعفف

الذى يحسبه الجاهل غنيا فيحترم الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أى دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو فى بعض المواضع والارتفاع فى بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص ، للموقنين : أى للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وما توعدون أى والذى توعده من خير أو شر .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المغترين الذين أنكروا يوم الدين ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم - أردف ذلك بذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم فى جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء إحسانهم فى أعمالهم ، وقيامهم بالليل للصلاة ، والاستغفار بالأسحار ، وإفنائهم أموالهم للفقراء والمساكين ، ونظرم فى دلائل التوحيد التى فى الآفاق والأنفس ، وتفكيرهم فى ملكوت السموات والأرض مصدقين قوله تعالى : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

ثم أقسم رب السماء والأرض إن ماتوعدون من البعث والجزاء حق لاشك فيه ، كما لاشك فى نطقكم حين تنطقون .

### الإيضاح

( إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ) أى إن الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه ، فى بساين وجات تجرى من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم ويفنيهم ويفوق ما كانوا يؤملون . ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال : ( إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ) أى إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح

الأعمال خشية من ربهم وطلباً لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التي فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون .

ونحو الآية قوله : « كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .  
ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال :

( كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ) أى كانوا ينامون القليل من الليل ويتهدون في معظمه ، قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها ، وقال الحسن البصرى : كأبدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجذوا إلى السحر . وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

( وبالأسحار هم يستغفرون ) أى فهم يحيون الليل متبهجين ، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم .

ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال :  
( وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ) أى وجعلوا فى أموالهم جزءاً معيناً ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج ، والمتمغف الذى لا يجد ما يغنيه ، ولا يسأل الناس ، ولا يفتنون إليه ليتصدقوا عليه .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمران والأكلة والأكلتان ، قيل فمن المسكين ؟ » قال الذى ليس له ما يغنيه ، ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بين أنه قد لاحت لهم الأدلة الأرضية والسموية التى بها أختبوا إلى ربهم وأنابوا إليه فقال :  
( وفى الأرض آيات للمؤمنين ) أى وفى الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم

قدرته ، استبانت لمن فكر وتدبر في هذا الكون وبديع صنعه ، مما يشاهد من صنوف النبات والحيوان ، والمهاد والجبال ، والقفار والبحار ؛ إلى نحو أولئك مما بهر الخلق كما قال : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » .  
فالموقنون كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقانا ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه فينتفعون به .

( وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ) أى أفلا تنظرون نظر من يعتبر في اختلاف الألسنة والألوان ، والتفاوت في العقول والأفهام ، واختلاف الأعضاء ، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللب ، ويدهش منه العقل ؟

وخلاصة ماسلف — إن الله تعالى وصف المتقين بأنهم محجّون في العبادة البدنية وفي بذل المال للمستحقين من ذوى الحاجة والبائسين ، والإيمان بالله والعلم بقدرته بالنظر في الآفاق والأنفس .

( وفي السماء رزقكم وما توعدون ) أى وفي السماء أسباب رزقكم من الذيرين ( الشمس والقمر ) والكواكب والمطالع والمقارب التي بها تختلف الفصول فتنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التي تحملها السحب وتسوقها الرياح لأسباب فلكية وطبيعية أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وكذلك ما توعدون من خير وشر ، قاله مجاهد .

ثم أقسم ربنا بعزته وجلاله إن البعث لحق فقال : ( فإنا لنوعدكم البعث ) ( فإنا لنوعدكم البعث ) ثم أقسم ربنا جلّت قدرته بجلاله وكبريائه : إن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون ، وهذا كما يقول الناس : إن هذا الحق كما أنك ترى وتسمع .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .  
 عن الأصمعي قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال ممن الرجل ؟ قلت من بنى أصمعي ، قال من أين أقبلت ، قات من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال : اتل علي فتلوت والذاريات فلما بلغت : وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ قال حسبيك ، فقام إلى ناقته فنجرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَبِيرٌ بِالسَّاعَاتِ . فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقه حتى حلف ( قالها ثلاثا ) وخرجت معها نفسه .

وإنما قصصت عليك هذا القصص لما فيه من أدب بارع وظرف وحسن فهم من ذلك الأعرابي لكتاب الله ، ولك بعد ذلك أن تصدقه أو تشكك فيه ، فكم للأصمعي من مثله ، فهو الأديب البارع ، والراوية الحافظ ، فلا يمجزه أن يصنعه ويصنع أمثاله .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ  
 فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّتَّكِرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ  
 سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْتُونَ كُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا  
 لَا نَخَفُ وَبَشَّرُوهُ بِإِلَافٍ عَالِمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ  
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ  
 الْعَلِيمُ (٣٠)

## شرح المفردات

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المتكرمين : أى عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه ومجمل لهم القرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون : أى قوم لاعهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرفت لى نفسك وصفها ، فراغ إلى أهله : أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه ، سمين : أى تمتلئ بالشحم واللحم ، قربه إليهم : أى وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه الخوف منهم ، امرأته هى سارة لما سمعت بشارتهم له ، صرّة : أى صيحة ، فصكت وجهها : أى ضربت بيدها على جبهتها وقالت يا ويلتنا ، عجوز عقيم : أى أنا كبيرة السن لا ألد .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم ربهم بعزته أنه كأن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يُقلعوا عما هم فيه ، فسيجل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبي صلى الله عليه وسلم على سنته كما قال تعالى : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأنى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخياً لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيهها لأنظاره حتى يصفى إليه ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبهها إلى أن الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحي .

### الإيضاح

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ؟) أى هل عندك نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه وهم ذاهبون في طريقهم إلى قوم لوط ، فسأموا عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها .

ثم أراد أن يتعرف بهم فقال :

(قوم منكرون) أى إنكم قوم لاعدد لنا بكم من قبل فعرفوني أنفسكم -

من أتم ؟

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة أسرها في نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك ، لأن في خطاب الضيف بنحو ذلك إجحاشاً له ، إلى أنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم ، ولم يتصد لمقدمات الضيافة ، ثم ذكر أنه أسرع في قرى ضيوفه فقال :

(فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) أى فذهب خفية مسرعاً وقدم

لضيوفه عجلاً سمينا أنضجه شيئاً ، كما جاء في سورة هود « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى على الرصف .

(قال ألا تأكلون ؟) أى قال مستحجناهم على الأكل : ألا تأكلون ؟ وفي

هذا تلطف منه في العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ،

إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله وهو عجل فتى مشوى ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف في العرض فقال :  
ألا تأكلون ؟

( فأوجس منهم خيفة ) أى فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر في نفسه الخوف منهم ، ظننا منه أن امتناعهم إنما كان لشراً يريدونه ، فإن أكل الضيف أمانة ودليل على سروره وانشراح صدره ، وللطعام حرمة ، وفي الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن ، وقد جاء في سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتَّصِلُ إِلَيْهِ نَسِكْرُهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً »

ثم ذكر أنهم طمأنوه حينئذ فقال :

( قالوا لا تخف ) منا إنا رسل ربك ، وجاء في الآية الأخرى : « قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ »

( وبشروه بسلام عليم ) أى فبشروه بإسحاق بن سارة كما جاء في سورة هود : « فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَعِزْرَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » وجاءت البشارة بذكر لأنه أسراً للنفس ، وأقر للعين ، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل ، لا الصورة الجميلة ولا القوة ولا نحوهما .

ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال :

( فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ) أى فأقبلت امرأته سارة حين سمعت بإسارتهم ( كانت في ناحية من البيت تنظر إليهم ) وهي تصرخ صرخة عظيمة وضربت يديها على جبينها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ وجاء في الآية الأخرى : « قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » فأجابوها عما قالت :

(قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى قالوا لها : مثل الذى أخبرناك به قال ربك ، فنحن نخبرك عن الله ، والله قادر على ما تستبعدين ، وهو الحكيم فى فعله ، العليم الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

والخلاصة - إنها استبعدت الولادة لسببين : كبر السن والعقم ، وقد كانت لاتلد فى عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجدرُ بها الآن ألا تلد ، فكأنها قالت : ليتكم دعوتكم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعى : أعطاك الله مالا ورزقك ولدا ، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى :

قد تم ما أردنا تصنيفه فى تفسير هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .